الدلالة التداولية لضمائر العربية في الخطاب

فاطمة نصر بن ناجـــي ـ كلية الآداب العجيلات ـ جامعة الزاوية

The pragmatic significance of Arabic pronouns in discourse

fatema naser bennaji

Abstract

This research addresses the pragmatic characteristics of pronouns, as pronouns are among the most important linguistic tools in the Arabic language. Undoubtedly, they perform significant referential and semantic functions that help the speaker connect ideas and events within the context of speech. Pronouns, as a homogeneous branch added by the Arabs to the category of nouns, aim to place pronouns within the nominal list compared to explicit nouns. The expansion of grammatical classifications to include the pragmatic meaning of pronouns leads us to focus on the most important semantic characteristics that distinguish pronouns and determine their coherence within the spoken text. Keywords: ellipsis – conversation – subordination –

الملخـــــص :

يتناول هذا البحث دراسة للخصائص التداولية للضمير ؛ إذ تعد الضمائر من أهـــم الأدوات اللسانيـــة في اللسان العربـــي وبلا شك تؤدّي وظائف إشارية ودلالية مهمة تُعين المتحدث على ربط الأفكار والأحداث في سياق الكلام والضمائر بصفتها فرعا متجانسا أضافته العرب لصنف الأسماء ترجو من خلالها وضع الضمائر ضمن قائمة الاسمية مقارنة بالأسماء الصريحة وإن التوسّع في المصنفات النحوية للدلالة التداولية للضمير يجعلنا نقف عند أهم الخصائص الدلالية التي تميز الضمائر و تحدد انسجامها داخل النص الكلامي.

الكلمات المفتاحية: الإضمار – التخاطب- التبعية ـ الإبهام

المقدمة :

تُعد الضمائر من أعـــرف المعارف في العربية لما تقوم به من دور بارز في إحكام التماسك الدلالي لبنية النص وبلا شك فهي تحقق تألفا ملحوظا على مستوى التركيب داخل النصوص ؛ لأنها تقرن الربط الرصفي بالربط المفهومي ، أي: بين ما هو لفظي وما هو معنوي بين المفردات اللغوية داخل التراكيب النّحوية .

وإن الغرض من دراسة دلالة المضير في التداول هو معرفة ما يقوم به الضمير من ربط أجزاء الجملة داخل النص و فهم المعنى الحقيقي للجملة و تحسين التواصل و

تجنب سوء الفهم وذلك من خلال دراسة موضوعية للدلالة التداولية للضمائر المختلفة حيث لا يمكن فهم المعاني و الدلالات الواردة في الكلام دون وجود هذا الترابط بين أجزائه المختلفة سواء كان الكلام جملة أم نصّاً من النصوص.

و كما نعلم أن الضمائر في اللسانيات التداولية تندرج ضمن تداولية الدرجة الأولى لما للضمير من بعد تداولي ذلك أن الإضمار ذو بعد تداولي لما له من وظائف تداولية ترتكز على مقامات الكلام وسياقاته.

ومن خلال هذا البحث عرضنا ما للضمير من دلالة تداولية في سياق الخطاب ؛ إذ لا يمكن أن تتم عملية التخاطب بين المتكلم والمتلقي بدون وجود هذه الضمائر داخل النص لكونها وسائل الربط بمرجعيات لغوية سياقية .

وقسمنا البحث إلى عناوين ، كان الأول حد الضمير أي تعريفه وبيان أهم أقسامه ، والثاني الدلالات المختلفة للضمير من خلال وروده في سياق الكلام من خلال الضمير بحسب دوره في الخطاب ، التعريف والتنكير ، الإضمار ، الإبهام ، ثالثا ختمنا البحث بالنتائج المتوصل إليها.

متن البحث:

الضمير هو ما دل على معنى صرفي عام يعبر عنه عموم الحاضر أو الغائب دون دلالة على خصوص الغائب والحضور قد يكون حضور تكلم كأنا ونحن، وقد يكون حضور خطاب كـ(أنت)ـ وفروعها، أو حضور إشارة كهذه وفروعها، والغيبة قد تكون شخصية كما في هو وفروعه، وقد تكون موصولية كما في الذي والضمائر في اللغة العربية الفصحى تنقسم الضمائر من حيث دلالتها إلى ثلاثة أقسام:

- ضمائر المتكلم ثلاثة هم: أنا ، نحن ، نا
- ضمائر المخاطب هم : أنتِ ، أنتَ ، التاء المتصلة ، أنتما ، أنتم.
- ضمير الغائب هم : هو ، هي ، هما ،الهاء المتصلة ، هن

وهذه الضمائر جميعًا دلت على معانٍ صرفية عامَّة ولذلك فإن الضمائر لهذا السبب تشبه الحرف شبها معنويا بالإضافة إلى الشبه اللفظي الذي يظهر في بعضها ، فلا فارق في الطابع بين معنى الحضور والغيبة ، و من حيث المبنى فالمعروف أن الضمائر ليست ذات أصول اشتقاقية فلا تنسب إلى أصول ثلاثة ولا تتغير صورها التي هي عليها كما تتقلب الصيغ الصرفية بحسب المعاني ثم هي لا تبقى على صورة واحدة في الأماكن المختلفة من السياق ؛ وإنما يلحقها بعض الظواهر الموقعية من الإشباع والأضعاف واختلاف الحركة بحسب مناسبة الحركة التي بجوارها وذلك

كالفرق بين له و به، ولهم وبهم ومنهم وعليهم الخ. ثم إن الضمائر جميعا من المبنيات التي لا تظهر عليها حركات الإعراب ولا تقبل بعض علامات الأسماء كالتنوين ولا تقع موقع المضاف وإن صح فيها أن تقع موقع المضاف إليه والضمائر جميعا مفتقرة إلى القرائن باعتبارها شرطا أساسيا لدلالتها على معين فضمير المتكلم والمخاطب والإشارة قرينتها الحضور وأما ضمير الغائب فقرينته المرجع المتقدم إما لفظا أو رتبة أو هما معا فهذا المرجع هو القرينة التي تدل على المقصود

و إن انقسام الضمائر حسب الإعراب إلى ضمائر رفع وضمائر نصب تعد سمة صرفية تميز هذه الوحدات اللسانية عن الأسماء و تفسر بناءها و تمكنها في الاسمية " ذلك أن المقتضى لإعراب الأسماء توارد المعاني المختلفة على صيغة واحدة و المضمرات مستغنية باختلاف صيغها لاختلاف المعاني عن الإعراب ألا ترى أن كل واحد من المرفوع والمنصوب و المجرور له ضمير خاص" [1]

تعريف الضمير:

جاء الضمير " من أضمر ، جاء على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي : مُضمر، و تدور معاني أضمر في اللغة العربية على الخفاء ، فقيل : رجل ضامر أي : هضيم البطن ، و فرس ضامر أي : دقيق الحاجبين ، ويطلق الضمير على السر و الخاطر ، ويُقال : أضمرت الأرض الرجل أي: غُيب بسفر أو موت [2]

وهو اسم معرفة وهو أعرف المعارف ذكره ابن هشام في شرح شذور الذهب بأنها قد " استعملها العرب لقصد اختصار الأسماء وهو جامد مبني و علل النحاة تسميته بكثرة استتاره ، فيكون إطلاقه على البارز توسعاً ، وقيل لعدم صراحته كالأسماء المظهرة ، والضمير مصطلح بصري ، يسميه الكوفيون الكناية وهما بالمعنى نفسه"[3]

وهو ما وضع لتعيين مسماه مشعرًا بتكلمه ، أو خطابه ، أو غيبته ، و هو ما دل على متكلم أو مخاطب أو غائب [4] والأصل في الضمير أن يكون له رجع متقدم ، ليفهم المعنى ويزيل اللبس و يتحقق الربط بين عناصر النص مؤدي إلى تماسكه ، نحو (محمد أكرمته) و لا يجوز أن تقول : أكرمته ، هكذا ابتداء ؛ لأن ذلك ضرب من التعمية والإلباس يناقض القصد من اللغة ، ومع وضوح هذا الأصل فإننا نجد أساليب بنيت على خلافه ، فقد يذكر الضمير دون مرجع له في الكلام اعتمادا على فهم السامع من خلال نظرته إلى السياق بعناصره المختلفة ، حيث يؤدي دورًا بارزًا في بيات مرجع الضمير داخل النص الوارد فيه فبمجموع تضافر القرائن المقامية والمقالية يستطيع المخاطب تحديد مرجع الضمير أو ترجيح مرجع على آخر [5]

الضمير بحسب دوره في الخطاب :

الاسم في العربية هو ما دل على مسمى، و الصفة ما دل على موصوف بالحدث ، و الفعل ما دل على حدث وزمن ، أما دلالة الضمير نجدها تتجه إلى المعاني الصرفية العامة التي أطلقنا عليها معاني التصريف، كاللواصق والزوائد ونحوها ويقول صاحب الكتاب مصنفا للضمائر بحسب أدوارها في التخاطب :" اعلم أن المضمر المرفوع إذا حدّث عن نفسه فإن علامته (أنا) فإن حدّث عن نفسه وعن آخر قال: (نحن) ... وأما المضمر المخاطب فعلامته إن كان واحد (أنت) و إن خاطبت اثنين فعلامتهما (أنتما)، و إن خاطب جميعا فعلامتهم (أنتم) ... ، وأما المضمر المحدث عنه فعلامته (هو) و إن كان مؤنثا فعلامته (هي) و إن حدث عن اثنين فعلامتهما (هما) و إن حدث عن جميعا فعلامتهم (هم) و إن كان الجمع جمع مؤنث فعلامته (هن) [6]

"اعلم أن المضمر المرفوع إذا حدث عن نفسه فإن علامته أنا فإذا حدث عن نفسه وآخر قال: نحن، وأما المضمر المخاطب فعلامته إن كان واحد أنت ، وإن خاطبت اثنين فعلامتهما أنتما و إن خاطب جميعا فعلامتهم أنتم ، وأما المضمر المحدث عنه فعلامته : هو و إن كان مؤنثا فعلامته هي وإن حدث عن اثنين فعلامتهما هما و إن حدث عنه جميع فعلامتهم هم و إن كان الجميع جمع مؤنث فعلامته هن " [7]

التعريف والتنكير :

التنكير هو الشمول و العموم وعدم التعيين و يقابله التعريف الذي يفيد التعيين والتخصيص بإخراج الاسم من الدلالة على العام إلى الدلالة على الخاص و التنكير والتعريف من خصائص الاسم التي لا تلحق سواه من أصناف الكلام ، وعلى أساس كون الاسم المعرفة هو ما أشير به واحد معين سبق علم المخاطب به فغدا عنده من المعارف المعلومات لا من النكرات المجهولات أدرج النحاة الضمائر ضمن المعارف من الأسماء ونزلّها أغلبهم منزلة أعرف المعارف لأنها تُعلم أن من يحدث قد عرف من تعني و تعني [8]

ويُفـــهم من ملاحظة سيبويه أن تعريف الضمير إنما يحصل بالاستعمال و ما يشير إليه من مرجع اسمي جاء مبهم بالوضع لعدم دلالته على معين و يكتسب خاصية التعريف في التركيب النحوي المنجز في مقام معين ، وما تنزل تعريف الضمير ضمن التعريف بالأصالة إلا لتمييزه عن صنف الأسماء التي تعرّف بواسطة ما يدخل عليها في حال التنكير من وسائل لغوية.

الإضمار :

نجد في العربية غالبا ما يُوضَعُ الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ، فيُذكَرُ الاسمُ في المَحلِّ الَّذي يَصلُحُ فيه الضَّميرُ لغَرَضٍ مِنَ الأغْراضِ البَلاغيَّةِ؛ بينما نجد أغلب النحاة المتأخرين والدارسين المحدثين ينتقي منه المتكلم ما به يبني كلامه أثناء الاستعمال الشخصي للجهاز ، غير أن هذا الاستعمال السائد يعد جانبا مهما من الجوانب التي يقوم بها هذا النظام اللساني الجزئي في العربية ؛هذا الجانب المغيب في رواج استعمال مصطلح " الضمير"

والذي يبرز في استعمال النحاة الأوائل باسم " الحدث" الصيغة الصرفية التي تستعمل لتسمية الحدث الذي يفيده الفعل فالإضمار في الاستعمال البصري و الكناية في الاستعمال الكوفي [9] وكلاهما يدلان على أن الظاهر في جوهرها عملية يقوم بها المتكلم أساسها ضرب من تحويل المظهر مضمرا وشرط تحقق هذا العمل رفع الإبهام لكي لا ينتقص من الكلام

ويكون ذلك بمعرفة المخاطب ما يضمره المتكلم من جهة ، وبعلم المتكلم أن المخاطب يعرف ذلك من جهة ثانية ، يجمع لنا سيبويه ضرورة قيام عمل الإضمار على توفر معرفة المخاطب بما يضمر المتكلم وعلم المتكلم بذلك في قوله : " لم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية لأن هو و أنا علامتان للضمير و إنما إذا علم أنك قد عرفت من يعني" [10]

ويتبين من ملاحظات النحاة الوصفية أن المتكلم إنما يلجأ إلى الإضمار اجتنابا لتكرار الاسم و احتراسا من اللبس من جهة ورغبة في الاختصار و الاختزال و تحقيقا للمجهود الأدنى من جهة ثانية ، يقول الاستربادي في هذا مقارنا بين الإضمار والإظهار :" اعلم أن المقصود من وضع المضمرات رفع اللبس" فإن أنا و أنت لا يصلحان إلا لمعيّنين وكذلك ضمير الغائب نص في أن المراد هو المذكور بعينه في نحو : جاءني زيد وإياه ضربت

أما في المتصل يحصل مع رفع الالتباس : الاختصار وليس كذا الأسماء الظاهرة فإنه لو سمي المتكلم و المخاطب بعلميهما فربما التبس ولو كرّر لفظ المذكر مكان الضمير الغائب فربما توهّم أنه غير الأوّل " [11]

فالضمير سواء كان متصلا أو منفصلا ، يشترك مع الحروف في قيامه على أقل الكميات اللفظية ويشبهه في البناء على هيئة صوتية مجهولة الأصول الاشتقاقية لا يمكن تمثيلها بوزن صرفي كما يرد مثله في الاستعمال لغرض الإيجاز و الاختصار

غير أن الحروف و إن كانت أبنية مختصرة و أشكال صغيرة تلخّص بنية نحوية عميقة مجردة و تختصر النواة العاملة الاسنادية في أدنى الأشكال النحوية ، فإن الضمائر عدا ضمير الشأن يؤتى بها بعد الاسم أو ما يقوم مقامه من المركبات النحوية لتعوّضه وتدل عليه و تطابقه في الجنس و العدد وتؤدّي مل يؤدّيه من الوظائف النحوية ، لذلك كان دور الضمائر بارزا في الرّبط المعنوي بين المكونات داخل الجملة إلى جانب قيامها بدور لفصل .

و يمكن القول أن الإضمار في النظرية النحوية العربية بما هو عملية مزدوجة تقوم على حذف الاسم المظهر و تغييبه من جهة و تعويضه و استبداله من جهة ثانية ويعد هذا تحولا باعتباره خاصية من خاصيات الجملة القابلة للاختزال و التحول [12]

نفهم مما سبق أن الإضمار هي علامة تحول لفظي معنوي وهو عملية إخفاء للاسم "و " الاستغناء عن إظهاره"[13] و الاستعاضة عنه بعلامة من علامات الضّمير " إن كنت تريد الأوّل " حسبما ذكر صاحب الكتاب و معنى ذلك أن " الاسم الظاهر متى احتيج إلى تكريره في جملة واحدة كان الاختيار ذكر ضميره نحو زيد ضربته وزيد ضربت أباه وزيد مررت به " [14] إن الإضمار عمل يُنجزه المتكلم العامل الأصلي على أن إرادة الإضمار لا تقصي إمكانية الإظهار سواء كان ذلك في حدود الجملة الواحدة أو الجمل المتتابعة .

الإبهام :

تُعد الضمائر من المعارف وذلك لا يمكن تصوره إلا إجراء اثنا الكلام باعتبارها من المبهمات وهي " شرط من شروط رفع الإبهام عنها عند الاستعمال [15] ويتبين تصنيف النحاة هذه الوحدات اللسانية ضمن باب المبهمات من جهة و ترتيبه إياها أعرف المعارف و أخصها على نحو يجعلها تختص بأنها لا توصف ولا يوصف بها من جهة ثانية [16]

لقد أقر النحاة هذه السمة الدلالية في الضمائر فعدها المبرد جميعا من المبهمات و خصّ سيبويه الصنف ضمائر الغيبة إلى جانب أسماء الإشارة بصفة الأسماء المبهمة في قوله : " الأسماء المبهمة : هذا و هذان وهذه ...و هو وهي وهما وهم وهن " [17]

ولابد للضمير من مرجع أي وجود مرجع يعود إليه، فالضمائر تتميز عند النحاة بكونها لا تخلو من الإبهام وهو الغموض أو الخفاء و مع ذلك فلا مجال في تعيين عائدها، فالضمائر أسماء مبهمة لا تستقيم معها الفائدة إلا إذا كان لها مفسر تعود عليه ليكشف إبهامها ويزيل غموضها ، فلو وجدنا كلام مكتوبا على ورقة يقول فيها كاتبها :

أنا ذكي ، ولمن عرف من هو الكاتب ، لما كانت هُناك فائدة و نحو هذا لو قيل : هو مجتهدٌ ، دون معرفة مفسر الضمير "هو "بذلك لا يلزم أن يعود الضمير على اسم ظاهر مباشرة[18] كما أن جميع المبهمات مبهمة وضعا يزول عنها ذلك الإبهام بتحقّقها في الاستعمال و يظهر إبهام الضمائر في مستويات مترابطة يمكن أن نقصّها في نقطتين أساسيتين هما :

- كون الضمير كناية و إشارة إلى شيء وليس دلالة على شيء
- كونها وحدات غيريّة تتميز بالافتقار إلى مميز [19]

و يمكن الفهم مما سبق أن الضمائر وحدات مبهمة مثل غيرها من المجموعات المبهمة معناها شائع مجمل في اللغة ، لكنه يتعين بالاستعمال والإجراء في عملية التخاطب .

نتائج البحث:

خلص البحث بعدة نتائج نذكر أهمها :

1ـ تتجه دلالة الضمير إلى المعاني الصرفية العامة التي أطلقنا عليها معاني التصريف، كاللواصق والزوائد ونحوها.

2ـ تعريف الضمير إنما يحصل بالاستعمال و ما يشير إليه من مرجع اسمي جاء مبهم بالوضع لعدم دلالته على معين و يكتسب خاصية التعريف في التركيب النحوي المنجز في المقام.

3ـ الإضمار عمل يُنجزه المتكلم العامل الأصلي على أن إرادة الإضمار لا تقصي إمكانية الإظهار سواء كان ذلك في حدود الجملة الواحدة أو الجمل المتتابعة .

4ـ الضمائر وحدات مبهمة مثل غيرها من المجموعات المبهمة معناها شائع مجمل في اللغة ، لكنه يتعين بالاستعمال والإجراء في عملية التخاطب.

الهوامـــــش :

- أنظر ، شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين الأستربادي ،تحقيق يوسف عمر ،منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ليبيا ،1973 ، 2-ص402
- القاموس المحيط ، مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي، مادة (ضمر)
- أنظر، شرح شذور الذهب ،عبد الله بن يوسف ابن هشام جمال الدين أبو أحمد ،دط، ص 177.
- أنظر، شرح الحدود النحوية ، عبد الله بن أحمد الفاكهي ، تحقيق متولي رمضان أحمد الدميري ، ط1993،2،ص 298.
- انظر، الربط في سياق النص العربي، محمد حماد، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى ، المملكة السعودية ،ص140.
- أنظر الكتاب، سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ،الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ج2، ص350-351.
- أنظر، الكتاب 305-351 .
- أنظر ،نفسه، ج 2- ص68 .
- أنظر، نفسه، ج2- ص81 .
- الكتاب، نفسه ج 2- ص81 .
- شرح الرضي على الكافية ،رضي الدين الاستربادي ، تحقيق يوسف عمر ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، 1973، ج 2- ص401 .
- أنظر النحو التحويلي العربي الاسم والفعل ، والحرف ، صالح الكشو، مركز النشر الجامعي ، تونس،2012- ص229 .
- الكتاب ،سيبويه ج 1- ص62.
- الكتاب، سيبويه ج1- ص62 –هامش.
- أنظر أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية ، محمد الشاوش 2001، منوبة ، تونس - ص105 .
- أنظر المرتجل في شرح الجمل ، ابن الخشاب، تحقيق علي حيدر ، دمشق ، ص 286 .
- الكتاب ، سيبويه ، ج2- ص77 -78 .
- أنظر للضمير بنية ودور في الجملة ، الشاذلي الهشيري ،منشورات كلية الآداب منوبة ، تونس ،2003،ص 71 .

أنظر الاسمية الحرفية في نظام العربية ، خميس الجبري، أطروحة دكتوراه في اللغة والأدب ، جامعة سوسه ، تونس ، ص179